قراءة فنية في مسرح عزيز أباظة
مسرحية غروب الأندلس
أنموذجا

إعـــداد

د. ليلى عبده الشبيلي

الأستاذ المساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة جازان

"مسرحية غروب الأندلس" [1]

لـ " عـزيـــز أبـــــاظة "

([1]) صدرت عام ١٩٥٢م.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين ، وعلى أهله وأصحابه أجمعين ، وبعد

فى هذا البحث أتناول فيه بالتحليل مسرحية " غروب الشمس "لـــ "عزيز أباظة "، وأبدأه أولا بتعريف موجز عن عزيز أباظة :

عزيز أباظة (1316-1393هـــ) - 1891973(-8م)

هو شاعر مصري يعد رائد الحركة المسرحية الشعرية بعد أحمد شوقي، بالإضافة إلى كونه المدير السابق لعدة أقاليم مصرية منها :القليوبية والمنيا وبورسعيد وأسيوط.

نشأته وحياته:

ولد في منيا القمح في محافظة الشرقية عام ١٨٩٨ وتلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة الناصرية الابتدائية، وأكمل دراسته في كلية فيكتوريا في الإسكندرية ، ثم المدرسة التوفيقية بشبرا ، ثم المدرسة السعيدية .

درس القانون وتخرج من كلية الحقوق بالقاهرة عام 1923.م

تمرن على المحاماة في مكتب وهيب دوس بك المحامي لمدة عامين، ثم التحق بالحكومة وشغل عدة مناصب فيها ، فعمل مساعداً للنيابة ، فوكيلاً للنيابة في مديرية الغربية. وفاز بعضوية مجلس النواب عام 1929، عاد بعدها ليتولى عدة مناصب إدارية

منها وكيلاً لمديرية البحيرة عام 1935، ومديراً للقليوبية عام 1938 ثم مديراً للفيوم ثم مديراً للبحـــيرة، ثم عين محافظاً لبورسعيد وحاكماً عسكرياً عام 1942، ومنها مديراً لأسيوط. نال رتبة باشا أثناء خدمته في أسيوط، ثم عين عضواً في مجلس الشيوخ عام ١٩٤٧. اختير عضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة سنة 1959 ورئيساً للجنة الشعر بالمجـلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب كما عين عضواً بالمجمع العلمي العراقي. حصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1965.

أعماله الأدبية

اتسم أسلوبه بالجزالة والقوة والفخامة، له ديوان شعر بعنوان "أنات حائرة" نشره عام ١٩٤٣ وألف تسع مســرحيات شــعرية هي:

١-قيس ولبنى - نشر عام ١٩٤٣

. ٢-العباسة - نشر عام ١٩٤٧.

٣-الناصر- نشر عام ١٩٤٩.

٤-شجرة الدر - نشر عام ١٩٥٠.

٥-غروب الأندلس - نشر عام ١٩٥٢.

٦-شهريار - نشر عام ١٩٥٥.

٧-أوراق الخريف - نشر عام ١٩٥٧.

٨-قيصر - نشر عام ١٩٦٣.

٩-زهرة - نشر عام ١٩٦٨. وله :

١) من إشراقات السيرة النبوية (يضم أهم الأحداث التي حدثت عبر السيرة النبوية الشريفة وذلك بصياغة شعرية)

٢) ٢-ديوان عزيز أباظة، وأصدر بعد وفاته، وضم أربعة دواوين في العاطفة والقومية والرثاء وقصائد أخرى.

٣) ٣-كتاب (أشعار لم تنشر لعزيز أباظة)، أصدرته أبنته عفاف أباظة بعد وفاته ويضم أشعار لم تنشر في أي الدواوين والمسرحيات السابقة.

٤-ديـــوان (أنات حائرة)

ويعد الشاعر عزيز أباظة تلميذاً نجيباً - في فن المسرح - لأمير الشعراء أحمد شوقي، وقد ترسم أباظة طريق أستاذه في هذا الفن "لقد حاول عزيز أباظة أن يترسم خطى مسرح شوقي، تابعاً له فحاول أن يقدم التراجيديا المسرحية العصرية ، ولكن غلبت

الحكاية على بنية الحدث نفسه"[٢] ولقد قدم عزيز أباظة عشر مسرحيات[٣] للأدب المسرحي الحديث ، وهي :

قيس، ولبنى العباسة، الناصر، شجرة الدر، غروب الأندلس، شهريار، قافلة النور، قيصر، أوراق الخريف، زهرة، وهذا الكم الكبير من الأعمال المسرحية يشهد على التمكن الفني من أدوات المسرح عند عزيز أباظة، ويجعله يستحق أن يكن التلميذ الأول لأمير الشعراء في هذا الاتجاه.

والذي يهمنا من هذه المسرحيات : (مسرحية (غروب الشمس)

مضمون المسرحية:

تتناول المسرحية الفترة الأخيرة من حكم بني الأحمر في الأندلس، وهي تلك الفترة التي ختمت بسقوط الأندلس، وزوال الحكم العربي الإسلامي عن هذه الجزيرة ومن خلال المسرحية

([2]) د. أحمد شمس الدين الحجاجي، المسرحية الشعرية في الأدب العربي الحديث ص١٨٥ كتاب الهلال ١٩٩٥.

([3]) راجع في ذلك د. عبد المحسن عاطف سلام عن مسرحيات عزيز أباظة، منشأة المعارف الإسكندرية سنة ١٩٦١م، ود. كمال إسماعيل – الشعر المسرحي في الأدب المصري الحديث ، د. عز الدين إسماعيل – الشعر المسرحي في الأدب المصري الحديث. ود. عزالدين إسماعيل الأدب وفنونه – دار الفكر العربي. ود. إسماعيل الصيفي الدراما بين شوقي وأباظة مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٩٧٧م.

سوف نعرف العوالم التي أذنت بالرحيل والضياع، والانتكاس العربي ،ولعل من أهمها التناحر والمصالح الشخصية وضعف حكام الطوائف، (الذين) لم يستطيعوا أن يحملوا أعباء الدولة ولا أن يتحدوا أمام الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر، وكان ذلك مؤذناً بخضوع الأندلس لحكام شمال أفريقيا من الملثمين والموحدين ، وضعف أمر الموحدين بالأندلس *قال* (أهي : آل الحكم فيها إلى دولة بني الأحمر الذين يعرفون ببني نصر، وما زالوا بها متخذين غرناطة عاصمة لهم، وقصر الحمراء بها سكناً لهم وظلوا يتوارثون الحكم حتى قضى على الإسلام في هذه الجزيرة على يد أبي عبد الله آخر ملوكها وكان ذلك سنة ٨٩٧هـ، بعد أن حكمت هذه الدولة ٢٢٨ سنة، فقد تسلمت الحكم سنة ٦٦٩هـ.

وكان القضاء على يد الفرنج الشماليين الذين لم يغفلوا لحظة عن تثبيت دعائم ملكهم وتوسيع رقعته[٤]

وتتكون المسرحية من خمسة فصول وكل فصل يقع في عدة مناظر.

([4]) د. أحمد بدوي من النقد والأدب المجموعة الأولى ص ١١٣، ١١٤ ط٢ سنة١٩٦٠م.

الفصل الأول يتحدث عن "غروب الشمس" عن عائشة زوجة الملك الأولى وأم ولده أبي عبد الله ونرى تتابع المناظر بعضها بعد بعض، فنجد بثينة مهتمة بالمصائب التي تنزل على وطنها، وعلى الوجه الآخر ينظر إليها ابن سراج حبيبها على أنها ناقضة لعهد حبه ولم تف بعهدها، ثم نعرف حالة البلاد، والاضراب الذي يسودها داخلياً وخارجياً ففي الداخل نجد الظلم والخيانة والحكم بالأهواء وفي الخارج نعلم ما ينويه فرناندو وايزابلا من حرب المسلمين وقتالهم، ومن أجل ذلك فقد بعثت عائشة تطلب الزغل وهو أخو الملك حتى يكون على بينة من الأمور التي تدور من خلفهم ويأتي السلطان أبو الحسن الذي لم يعر اهتماماً لما يدور بين عائشة والزغل وأعلمهما أنهما يريدان له خطة للخلاص منه، وكانت المفاجأة بأن أخبرهما بأنه قد جعل ولده يحيى ولياً للعهد فظهر الاستياء على وجههما ثم أمر أبو الحسن بالزج بهم في الجب، أما بثينة زوجة السلطان الثانية وأم يحيى تأمره بأن يتصرف في تدبير وسيلة لإخراج عائشة من السجن، لأنها تضعها في منزل أمها، كما ترى سياستين مختلفتين يتبعها الوزير وقائد الجيش فلا يرى مصارحة السلطان بحقيقة الأحوال، حذراً أن يقصيه عن كرسي الوزراء ويستبدل سواه، وأما القائد فيرى الخير

في مصارحة السلطان ولهذا أخذ يمدح له العفو والرفق في معاملة أهله عله يخرجهم من السجن وقد نجح فعلاً في حمل السلطان على إصدار أمر العفو عنهم وكان ولده يحيى قد سبق على إصدار أمر العفو عنهم، فخرجوا والجئوا إلى بعض القبائل القوية يحتمون بها من بطش السلطان[٥]

ويتحدث الفصل التالي من المسرحية عن عائشة والزغل وقد ذهبا إلى "وادي آش" من أعمال غرناطة حيث وجد ترحيباً من الوالي، وعند الوالي بدأوا يعدون العدة، ويجهزن الجيوش لغزو مدينة غرناطة والعمل على إسقاط أبي الحسن عن عرش الحكم وأن يتولى أبو عبد الله الحكم بدلاً منه وقد مالت عائشة إلى هذا الاتجاه، وعلى الجانب الآخر خالفها محمد بن سعد الزغل في هذا الأمر خشية أن تضعف غرناطة وتصبح فريسة سهلة للأعداء لكنه رجع إلى رأي عائشة بعد أن قبض على أسير كان يحمل رسالة "الثريا" تدعو فيها إيزابيلا إلى الإسراع لنجدتهم بغرناطة قبل أن تجاربهم جموع عائشة، وبينما الملتجئون إلى داري آش قد أجمع أمرهم على الغزو إذ هم قائد جيش غرناطة يخبرهم أن ثورة قد اندلعت بها وأجبرت الملك على النزول عن عرشه، ولم يقبل

---

(٥) د. أحمد بدوي من النقد والأدب ص١٥.

الثائرون أن يلي العرش يحيى بن الثريا، بل أصروا على أن يلي الملك محمد بن عائشة[٦]. ويفخر محمد بن عائشة بقوة جيشه والتفاف الشعب من حوله ويحسب الفرنج قد أصبحوا ضعافاً لا يقدرون على مواجهته ، وما كان منه إلا أن خرج بجيشه لقتالهم، على الرغم من أمه حزرته كثيراً، لكنه يتشبث برأيه ويقع أسيراً في أيديهم واجتمع الرأي على أن يتولى أحد غيره مقاليد الأمور في غرناطة وقد كان. ويحزن محمد على ما حدث له وما حدث من التغيير الذي طرأ بسبب أسره في يد الأعداء، وهنا كانت الفرصة سانحة، لأن الفرنج قد ملأوا قلب الملك حقداً على الشعب ووعدوه بأن يعود إلى ملكه محمولاً على السيوف، والرماح ولكن ذلك لأغراض دنيئة في نفوسهم.

ويتناول الفصل الثالث من مسرحية عزيز أباظة "غروب الأندلس" اللحظة التي يرسمها الفرنج لإبادة الإسلام من الأندلس وكان ذلك عن طريق حرب مدمرة لا تبقي ولا تذر على حد من المسلمين في الأندلس، وكان أسر الملك في أيديهم مما شجعهم على ذلك وقوى عزمهم، ويتحدث الفصل عن صورة المسلمين في الأندلس من خلال أن الفرنج يرونهم من العظماء لكن الاختلاف في

---

(٦) السابق ص١١٦.

الآراء بين الحكام هو الذي أضعفهم وجعلهم شيعاً وأحزاباً لا وزن لهم ولا قيمة، أما أبو عبد الله فقد رفض أن يرجع إلى البلاد إلا ملكاً على قمة العرش، ولكنه رفض أن يفتديه شعبه وقومه وفضل أن يستعين بالأعداء حتى يحملوه إلى عرش غرناطة وكان هذا بداية ضياع الأندلس إلى الأبد على يد هذا الرجل الفاسد.

وفي الفصل الرابع تصوير لمحاولات عائشة التي تستنجد بالملوك المسلمين فذهبت إلى مراكش لكنها رجعت خائبة فلم يسعفها أحد ثم جاءت إلى مصر للاستنجاد بالسلطان والشعب في حماية الأندلس ضد الفرنج وبعد أخذ ورد قرر السلطان أن يرسل جيشاً لمعاونة المسلمين في الأندلس على الأعداء، لكن جد جديد في الأمور فقد حضر رسول من بلاد الأندلس أخبرهم بأن أبا عبد الله قد رجع إلى عرشه محمولاً على الرماح والسيوف وذلك بسبب عقده اتفاقاً هو اتفاق التابع للمتبوع، وفي تلك الأثناء لم يجد السلطان في مصر نفعاً في إرسال الجيوش بعد أن عادت الأمور إلى طبيعتها من الهدوء والسكينة.

ويأتي الفصل الخامس وهو نهاية المسرحية مصوراً الحصار الذي فرضته كل من "فرناندا" و "إيزابيلا" لمدينة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وكان حصاراً قوياً وشديداً بأهل

الأندلس الذين تجرعوا كئوس المُر والخوف والجوع وبسبب ذلك قرر أبو عبد الله ووزيره أبة القاسم وشيخ القضاة الصلح مع الأعداء والموافقة على الشروط التي وضوعوها وقد مضى الوزير ينفث سمومه في رؤساء القبائل حتى جنحوا إلى الصلح أيضاً، بينما وقف الأمير موسى الزغل والقائد ابن سراج وعلي العطار وعائشة أم الملك ضد رأي أبي عبد الله يريدون جميعاً أن يحاربوا إلى النهاية، وقد سفر الخبر كارلو لدى أبي عبد الله وأنذره عاقبة التمادي في الدفاع وذكره بما كان قد عاهد عليه فرناند عندما كان أسيراً بأنه سينزل للملك الإفرنجي عن العرش وحدد له وقت الغروب ميعاداً لقبول شروط فرناند ولم يجد الملك أبو عبد الله بداً من الخضوع لرغم رأي أمه وقواد جيشه، فأنزل العلم المرفوع عند الغروب علامة التسليم والقبول[٧]. وهكذا يسدل الستار على الفردوس المفقود، ويمضي إلى الأبد بعد أن سلم الملك أو عبد الله الخائن مفاتيح غرناطة ليكون بسقوطها سقوط للملك العربي في الأندلس، وكان عزيز أباظة من خلال عنوان المسرحية "غروب الأندلس" يرمز بهذا العنوان إلى الغروب الفعلي الذي أودى بالأندلس العزيز.

([7]) د. أحمد بدوي من النقد والأدب ص١١٧.

ويعلق الدكتور عز الدين إسماعيل على المسرحية قائلاً: ومسرحية غروب الأندلس مسرحية تاريخية تستمد حوادثها ووقائعها من التاريخ ولذلك كانت شخصياتها، هي الشخصيات التي ارتبطت بهذه الفترة التاريخية وهي كما نعلم الفترة التي انتهى فيها حكم العرب لأسبانيا بعد أن كان حكماً عريقاً وملكاً سعيداً، وانقسم العرب في أسبانيا إلى طوائف، واستقلت كل طائفة بجهة من الجهات وأقامت لها فيها أمارة وأخذ الأمراء يتنافسون ويحاربون بعضهم بعضا فأضعفت الفرقة شوكتهم، وأتاحت الفرصة للأسبان أن يقوموا وأن يحملوا على ملك العرب ليعيدوه مرة أخرى إلى حوزتهم ويطردوا هؤلاء الغزاة.

والمسرحية تصور لنا انهيار الحكم في غرناطة وهي أكبر إمارة في ذلك العهد، وقد حاول الكاتب أن يجعل مسرحيته صورة لحياة الأمم في الفترة التي يؤذن فيها بالانهيار وهي الفترة التي يستبد فيها الحاكم وينصرف إلى ملاهيه وملذاته ، ويترك القيادة إلى الضعفاء أو النساء يصرفن الأمور كيف شئن[٨]. وهذا ما كان وما حدث لأرضنا العزيزة الأندلس.

([8]) د. عز الدين إسماعيل الأدب وفنونه ص١٥٤ – دار الفكر العربي- القاهرة ط٢.

ولقد نجح عزيز أباظة في تصوير أحوال بلاد الأندلس في ذلك العهد من خلال مسرحيته "غروب الأندلس" فأحدثها قد وقعت في غرناطة، حين كان ملك المسلمين فيها قد آذن بالأفول أي أواخر القرن الخامس عشر.

الفكرة الرئيسية في المسرحية:

تنهض المسرحية بتصوير الحلقة الأخيرة من حلقات مسلسل العظمة العربية للمسلمين في الأندلس، وتخص مدة حكم دولة بني الأحمر وهي المدة التي انقضت بسقوط الدولة ونهاية الحكم الإسلامي في تلك الجزيرة وهذه المسرحية كتبها عزيز أباظة لتكون عظة وعبرة بالمشاهدة بدلاً من العظة بالنصيحة إنها مسرحية مستمدة من تاريخ العرب في الأندلس. ذلك التاريخ الذي تميز بدرامية وقائعه، وكثرة أحداثه التي أدت إلى خروج العرب المسلمين من الأندلس إلى غير رجعه، وقد رجع الشاعر إلى عدد وفير من المصادر العربية والأجنبية، مما أضفى على شخوص مسرحيته صيغة تاريخه إلى حد كبير[٩]. وقد انتهت المسرحية

---

(٩) د. عبد القادر أبو شريفة، د. حسين لاقي قزف. مدخل إلى تحليل النص الأدبي ص١٨١.

بقرار الملك بإنزال العلم وهو يبكي فتقول عائشة له في حزن وألم وإحساس بالضياع والفشل.

تذكر الله باكياً! هل يرد الدمع مجداً ثوى وعاراً أقاما

هدنى فوق خطبنا أنك ابني بالأم تسقى العذاب تؤامـــا

لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى ركنه أندك فأبكه كالأيامى[١٠]

تلك هي نهاية المسرحية وهي نهاية درامية مأسوية وفيها ربط للواقع الأندلسي بالواقع العربي بعد سقوط فلسطين وكان الشاعر يحذرنا من تكرار السقوط والضياع.

الشخـــوص:

تتميز الشخصيات في المسرح بميزات متعددة، لعل أهمها ألا تفقد كل شخصية صلتها بالعالم الحقيقي الذي تعيش فيه وألا يفرض المؤلف نفسه عليها فتتحول إلى أبواق تنطق بأفكار المؤلف أو دمي يحركها أصبعه ويستطيع المؤلف أن يبث أفكاره بطريقة خفية غير مباشرة حتى نشعر بأن شخصياته تتصرف بحرية وبطريقة طبيعية تلقائية كذلك تتصف بالوحدة بمعنى أن كل ما يصدر عنها من قول أو عمل يمكن تفسيره في ضوء المنطق الخاص لهذه الشخصية، والشخصيات المسرحية الفنية تدل على معنى إنساني يصلح أن

([10]) عزيز أباظة. غروب الأندلس ص١١٧.

يشاهده كل إنسان مع اختلاف الأمكنة والأزمنة بالرغم من أن المؤلف قد صورها في مكان وزمان معينين حتى يعطيها طابعها الواقعي[١١]

وتلك هي صفات المؤلف المسرحي الممتاز الذي يستطيع أن يرسم شخوصه المسرحية ببراعة فائقة، تجعل المتلقي أو المشاهد للمسرحية يحس أنها شخصيات طبيعية لا تتحدث بلغة الكاتب وإنما تعبر عما بداخلها في قناعة وواقعية.

شخوص المسرحية:

جاءت الشخصيات في مسرحية "غروب الأندلس" للشاعر عزيز أباظة على قسمين:

القسم الأول: شخصيات رئيسية.

القسم الثاني: شخصيات ثانوية.

وسوف أتناول هذين القسمين كلا على حدة:

([11]) د. محمد غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث ص٥٦٨، وراجع د. إسماعيل الصيفي الدراما بين شوقي وأباظة ص٥-٢٠٦.

الشخوص الرئيسية:

وهي تلك الشخصيات التي قامت بالدور الرئيسي في صناعة الأحداث المسرحية وفي لصراع الدائر للمسلمين بالأندلس والأعداء المتربصين بهم.

١- عـائشـة:

وهي من الشخصيات التي من الممكن أن نطلق عليها بطلة المسرحية، من الشخصيات النسائية التي كانت صانعة رئيسية لأحداث مسرحية غروب الأندلس، وهي زوجة السلطان أبي الحسن وأم ولده عبد الله، وعمرها في حدود الخامسة والأربعين وهي رمز عظيم للجهاد العربي في الأندلس في مواقفهم الحاسمة الأخيرة وهي قائدة ثورة، ومديرية ملك، وراسمة سياسية، ومؤلبة دول واستطاع المؤلف أن يجعلها رمزاً للمرأة الذكية ذات الإرادة الحديدة، وكان السلطان أبو الحسن يجدها سكناً له، ويجد عندها الرأي السديد، والحكمة البالغة عندما تشتد الخطوب، وتعن المشاكل، وعائشة بليغة الحديث قوية الحجة، ظاهرة الرأي، قوية الشخصية تقول عائشة لموسى بن أبي الغسان:

موسى تماسك فلا تحملك بادرة على العشار ولا يجمع بك الغضب

لن يهجم الملك مهما أضغنوه على جهل ترادف في أعقابه النوب[١٢]

وصورها عزيز أباظة وطنية شجاعة تخشى ضعف المسلمين وقوة الأعداء:

جحافل أعدائنا رصد لنا وأسنتهم شرع

وتفعل فينا سعاياتهم كما ترزأ الأيكة الزعزع[١٣]

ونموذج آخر لحبها للأندلس وخوفها الدائم على ضياعه وتقول عائشة:

أهلاً بمن ترجوه أندلس إذا عاث الذئاب بها فعز دفاع

وإذا الكوارث أظلمت وتهولت فيها فأنت صديعها اللماع

وظلت عائشة على طول الخط في المسرحية مثالاً لوطنية التي تعشق وطنها وتخاف عليه، وتجود عليه بأغلى وأثمن ما تملك حتى أن وطنيتها لم تدعها تغض عن مساوئ ابنها بعد أن صعد إلى العرش، فكانت تنتقد ضعفه وخضوعه للفرنج وتؤنبه على استسلامه لهم وتبكته على سياسته التي ترمي إلى الذل وهوان البلاد، وهذه الوطنية بهم إذا تركوا الأندلس للعدو الرابض يستولى

([12]) المسرحية ص٩، ١٠.

([13]) السابق ص١٣.

عليها ولم تكن مدفوعة إلى ذلك بعمل حبها لإبنها والمحافظة على عرشه ولكن يدفعها إلى حرصها على سلامة بلادها[١٤].

وكانت عائشة على استعداد تام أن تحمل السلاح وتقف في وجه الفرنج وتراها تحث قومها على الحرب ومقاومة الأعداء، وعدم الصلح والخضوع لكن ما أحزنها وجعلها تتجرع كأس المرار كونها أما لأبي عبد الله الخائن، الذي باع وطنه لأعدائه بأبخس الأثمان ولم يفتها أن تزجره وتبكته على فعلته الخسيسة تقول عائشة:

تذكر الله باكياً! هل يرد الدمع مجداً ثوى وعاراً أقاما

ثم تصرخ عائشة وتقول:

هدني فوق خطبنا أنك ابني بالأم تسقي العذاب تؤاما

لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى ركنه اندك فأبكه كالأيامى[١٥]

٢- السلطان أبو الحسن:

هو ملك غرناطة في حوالي السبعين من عمره، كان يتميز بالعدل والحزم، ثم حل عليه الضعف بسبب الشيخوخة تجاه زوجته الجديدة "ثريا الرومية" فتغيرت أحواله وساء حكمه وخرجت الأمور

([14]) د. أحمد بدوي من النقد والأدب ص١١٩.

([15]) المسرحية ص١١٧.

من يديه وقد صوره عزيز أباظة بالرجل العابث الفاسد، الذي ترك شئون دولته لزوجته الثريا حتى عم الفساد في كل جانب وكان يعتز بنفسه ويرى أنه الملك المتوج وله أن يتصرف في أمور البلاد كما يرى، وهو ينظر لشعبه على أنه خدمه وأتباعه، ولا يهتم بشعبه على الإطلاق ولا يراعي مصالحهم، وكان المتوقع من سياسته أن يثور عليه الشعب ويعملون على إقصائه عن الحكم، وكان فيع غلظة شديدة يعامل بها الرعية على أسوأ ما يكون، ولقد لقي نتيجة هذه المعاملة السيئة من شعبه الذي لفظه وأبعده عن عرش الحكم، ومن مظاهر جبروت هذا الملك مع الشعب قوله يخاطب العطار قائد جيش غرناطة:

أتظل تبذل لي نصيحة عاجز العجز يعصف بالممالك فأعلم
إني لقاذف جمعهم بكتائب تهوى عليهم بالقضاء المبرم
ومقلم ظفر المروق فبادئ بقرابتي وحرائري وبني دمي
ومؤدب هذي البلاد فجاعل من أهلها جرز النسور الحوم
من لم يدعم بالأسنة ملكه والحزم بات مفزعاً لم يسلم[١٦]

وهذه الشخصيات اختفت من مسرح أحداث الرواية بعد أن زال عنه عرشه فلم يستطع أن يعود إليه مرة أخرى.

([16]) السابق ص٣٦.

٣-شخصية الثريا:

هي زوجة السلطان أبي الحسن الثانية ومن أصل أسباني كانت تحاول أن تجعل ولاية العهد لابنها يحيى ... وحينما ضعفت أمور الدولة تعاونت مع الأسبان، وتتميز هذه الشخصية بالكيد والدسائس، وقد نجحت في الإيقاع بشخصية زوجها في شباكها وأن تستولى على عقله وقلبه معاً، فما كان من الملك إلا أن فوضها في كثير من أمور الدولة، وانصرف هو إلى اللهو والعبث. وكانت توز صدر الملك على عائشة زوجته الأولى، وابنها على شعبه ونجحت في ذلك إلى حد كبير، وكانت المفاجأة التي أذهلت ضرتها عائشة عندما علمت بأن الثريا زوجة الملك الجديدة قد استطاعت أن تجعل ولاية العهد لابنها الأمير يحيى، وكانت تريد أن يحكم الإفرنج البلاد ولذا عندما تأزمت الأمور قد أرسلت إلى إيزابيلا تطلب منها الإسراع في المجيئ قبل أن تأتي جموع عائشة إلى غرناطة[١٧].

ومن مظاهر الذكاء والحنكة والدربة على كسب عقل وقلب الملك ما تنص عليه الثريا في قولها مخاطبة الملك:

سلمت أمين الله بل إنه الرضا أحال قصوري تحت عينيك إحساناً
ولست وإن دللتني واصطفيتني سوى أمة أنت ابتنيت لها شاناً

([17]) راجع د. أحمد بدوي من النقد والأدب ص١١٢.

واستطاع عزيز أباظة أن يصورها من خلال أحداث المسرحية والصراع الدائر بينها وبين ضرتها عائشة زوجة الملك الأولى ونجحت الثريا بحيلها المتعددة أن تنتصر على عائشة وتأخذ ولاية العهد لابنها يحيى، وبدت في المسرحية تحب الأسبان وتتمنى أن تقع الأندلس في أيدي الفرنج.

٤- شخصية أبو عبد الله:

هو الابن الأكبر للسلطان أبي الحسن من زوجته الأولى عائشة في الثلاثين من عمره، شخصية سلبية لا حول لها ولا قوة، كان يخاف على عرشه من أجل المناصب وليس من أجل المجد العربي في الأندلس، استكان للإفرنج ولم يكن له شخصية أمامهم بل كان إمعه، وعلى يديه ضاعت دولة الأندلس، وسلم مفاتيح دولة غرناطة إلى الإفرنج، وكان دائماً يلجأ إلى أمه عائشة لتدبر له أمور الدولة، وتميز بعدم الخبرة في إدارة دفة البلاد بدليل قيامه للحرب ضد الإفرنج دون استعداد لهذه الحرب، وهذا يشير بضعف ذكائه وقلة حيلته، وكانت هزيمته برهاناً على جهله السياسي والحربي، وهو شخص حقود، حقد على عمه أن صعد على العرش بعد أن أسر ودفعه هذا الحقد إلى أن يستسلم للفرنج وأن يعقد معهم وينزل به

عن العرش، ويكون تابعاً لفرناند إذا أعاده هذا العرش "عرش غرناطة"[١٨].

إلى جانب ما ذهب إليه الدكتور أحمد بدوي في حديثه عن شخصية أبي عبد الله الخائن الذي لم يستطيع أن يفهم لماذا يعامله الإفرنج في الأسر بطريقة مهذبة وكانت هذه المعاملة الحسنة من جابهم لأغراض في أنفسهم لم يعها أبو عبد الله لأنه كان رجلاً غبياً، ووافق في بلاهة على الصلح مع الأعداء ولم يأخذ درساً ممن سبقوه من ملوك الأندلس، وكان الأجدر به أن يتعظ من هؤلاء، وسلم الخائن ورضي بشروط الصلح، ولم يسمع لأحد حتى لأمه التي قرظته ولعنته بل جعلته مثل النساء، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على سوء نيته، وما زلنا إلى يومنا هذا نبكي الأندلس عرشاً عربياً وحضارة تشهد على عظمة الفتح العربي للأندلس الذي لم يحافظ عليه الخائن أبو عبد الله.

ويصوره عزيز أباظة في غروب الأندلس وهو يتحسر على ما فعله ويتذكر ملوك الأندلس العظام الذين بنوا حضارة الأندلس على أكتافهم، وكيف عانوا في سبيل المجد العربي في الأندلس، يقول أبو

([18]) د. أحمد بدوي من النقد والأدب ص١٢٣.

عبد الله موجهاً حديثه إلى أمه التي تتمنى الموت من أن ترى ما يحدث أمامها للأندلس:

ليس غير الأذغان للباطش الجبار هذا هو الطريق السوي

قدر الله أن أشيع ملكاً غمر الكون نوره العبقري

تحت عيني هوى لقد لعن الناصر عهدي والفاتح الأموي

لو توليته وبيتي وفي مجمع أمره وشعبي لي

لا تقينا نهاية دفع الخلف إليها والخلف داء دوى[١٩]

ويحدثه موسى مويخاً ويقول:

أيها الملك قد تداعت فدالت دولة المسلمين فهي فلول

يوم ساورتها بجيش عدو الله ترمي عن قوسه وتصول

إن من صال بالعدو عدو ومن اعتز بالدخيل ذليل

وإذا الملك واثب الشعب فالله كفيل بسحقه ووكيل[٢٠]

ويبكي أبو عبد الله بعد فوات الأوان ويقول:

أشهد الله أنني قد نشدت الخير ما استطعت..فاخفضوا الأعلاما[٢١]

([19]) غروب الأندلس ص١٠٩.

([20]) غروب الأندلس ص١١٠.

([21]) السابق ص١١٦.

وتنخفض الأعلام وتنطوي صفحات ناصعة من المجد العربي التليد في الأندلس بسبب هؤلاء الخونة وعلى رأسهم الخائن الأول أبو عبد الله.

٥-شخصية محمد بن سعد الزغل:

كان يرى أنه أجدر من يحمل مسئولية عرش البلاد، وهو شقيق السلطان أبي الحسن، وقد غضب من عائشة عندما علم بأنها تدبر الأمور لابنها "أبي عبد الله" حتى يتولى ولاية العهد، وكان الزغل يريد أن يمهل مسألة الولاية إلى ما بعد الانتصار على الأعداء، وهو في الخمسين من عمره، ويتميز الزغل بالوطنية والشجاعة، وكان يرى في نفسه الملك المتوج للأندلس، والأصلح من أبي عبد الله، وهو يطمع في المناصب العليا في الحكم، وكان هذا الطمع منه في العرش والمنافسة بينه وبين أبي عبد الله مما أودى بالبلاد وأسقطها في يد العدو الذي أخذ كل واحد منهما على انفراد، فقد حال تنافسهما دون اجتماعهما يداً واحدة على قتاله ولكنه استفاد من درس مالقة فإن العدو برغم ما بذل من وعود ولم يف بواحد منها بل غدر بمالقة أقبح الغدر[٢٢].

([22]) د. أحمد البدوي من النقد والأدب ص١٢٢.

وبعد أن وعي محمد بن سعد الزغل هذا الدرس ذهب إلى غرناطة تاركاً الخصومات والمشاكل حول ولاية العهد، وقر أن يحارب الأعداء حتى آخر حياته، وأن يتحدى الجميع وأن يقفوا صفاً واحداً للقضاء على الفرنج، لكن ذلك جاء بعد فوات الأوان. وقد رسمه عزيز أباظة في صورة رائعة محبة للوطن والشعب والإسلام، ويأمر الشعب بالالتفاف والاتحاد يداً واحدة في مواجهة الفرنج الذين يتربصون بهم الدوائر.

يقول الزغل موجهاً حديثه إلى عائشة:

عرضتم لضخم الأمر لم تتذاكروا ... عواقب قد تبدو ولكم تغيب

أتاريث أضغان وايقاظ فتنة ... تدك قوانا والعدو رقوب!

إذا لم نقف صفاً علكنا، وأطبقت ... قواطع تغري ملكنا وينوب

فلا تطمسوا الإسلام إن شروقه ... سيغشاه مما تزمعون غروب

تكاد عراه في الجزيرة تنضوي ... وتنفد أشطان له وطنوب[٢٣]

يقول الزغل:

لئن ساورت غرناطة غداً ... بخيلك يحملن العديد المجمهرا

مهدت لأعداء البلاد سبيلهم ... إليها فأمس صعبهم قد تيسرا

([23]) غروب الأندلس ص٤٢، ٤٣.

٦-شخصية الحبر كارلوا:

من أبرز شخصيات الإفرنج التي صورتها المسرحية، وكان يعمل وزيراً لفرناند وايزابلا، تميز بالدهاء والحنكة، في الخمسين من عمره، يتسم بكثير من صفات الخبير السياسي الذي يعرف كيف يسوس الأمور، وقد نجح في الخطط التي وضعها في طرد العرب من الأندلس كان يجعل من الملك أبي عبد الله وسيلة في يده للضغط على العرب عامل الملك في أسره أحسن معاملة، وأوعز صدره على العرب، عمل سفير لدى العرب، وكان يتعامل بذكاء ودربة مع كل من يعاملهم، عرف بكراهيته الشديد للعرب، ويمنى اليوم الذي يأتي وقد أبيد هؤلاء العرب جميعاً، ومن صوره في مسرحية غروب الأندلس.

يقول الحبر:

أجزتم، فأنزلوا العلم الخفاق والشمس تنثني للغروب
وابعثوا كابراً لتوقيع هذا العهد عنكم في الموعد المضروب
في يديه المفتاح، مفتاح غرناطة والقصر ذي الحمى المطنوب
الغروب الميقات لا تتعدوه وإلا الويل للمغلوب

القسم الثاني من الشخوص:

الشخوص الثانوية:

وهي تلك الشخصيات التي قامت بأدوار مكملة لأحداث المسرحية والشخوص التي لا يمكن إهمالها في أي عمل مسرحي فعلى الرغم من قيامها بأدوار هامشية لا أن المسرحية تكون ناقصة بغيرها ولا يمكن أن تكون على المستوى المطلوب بغير مشاركة هذه الشخوص.

والشخوص الثانوية عند عزيز أباظة كثيرة ومتنوعة من الرجال والنساء من المسلمين والإفرنج ومن بين هؤلاء موسى بن أبي الغسان بطل الأندلس في تلك الفترة من تاريخ الأندلس. وقد لعبت دوراً كبيراً في أحداث المسرحية، تميز بالوطنية، والثورة الدائمة على الأوضاع المتردية، والدفاع عن الوطن حتى الموت ومن هذه الشخوص الثانوية أيضاً الأمير "علي العطار" وهو قائد جيش غرناطة، تميز بالصلابة والقوة في الحق والأمانة ولم يعجبه ما فعله صهره الملك أبو عبد الله عندما خضع وتهاون وخان الأمانة وسلم غرناطة للأعداء، والأمير "يحيى" من الشخوص الثانوية في المسرحية وهو ابن السلطان أبي الحسن من زوجته الثانية الثريا حصل على ولاية العهد من والده برغم صغر سنه

عم أخيه إلا إن أمه لعبت دوراً كبيراً في أخذه ولاية العهد. وهناك الكثير من الشخوص الثانوية مثل محمد بن سراج والوزير أبو القاسم وفرديناند وايزابلا ملكة قشتالة ووجد وأمل من الجواري وغير ذلك من شخوص ثانوية لا تستحق أن يفرد لها حدثاً خاصاً بها.

اللغة والأسلوب:

إن للغة المسرحية طابعاً خاصاً بها يميزها عن بقية الفنون والأجناس الأدبية فالمسرح يأخذ من كل فن بطرف، ومن المفهوم أن لكل فن أدواته، من معرفة الأداة يمكن معرفة طبيعته فأداة الأدب اللغة وأداة الموسيقى الصوت وأداة الصورة اللون وأداة الرقص الحركة. أما المسرح فهو فن تشترك جميع أدوات هذه الفنون إبرازه كاملاً فهو يعتمد على اللغة والصوت واللون والحركة، وتتحدد هذه الأدوات في اللغة والتمثيل والإخراج والمناظر والموسيقى، وليس من الصعب إدراك الفهم العام لهذه الأدوات. فالمسرح نتاج إنساني بسيط في إمكانية إدراك أدواته ومفاهيمه والإحساس به عن طريق الاستبطان الذاتي ومعقد في إمكانية إبرازه كاملاً ولعل أقرب هذه الأدوات إلى البساطة الحقيقية والتعقيد هي اللغة.

فالمسرح يقوم أساساً على اللغة لكن كيفية أداء هذه اللغة على المسرح والكتابة بها أمر معقد غاية التعقيد. فالخطيب والشاعر والقصاص يجدون من الحرية في استخدام اللغة ما لا يجده الكاتب المسرحي فهو مرتبط بعمل فني له طريقة محددة لا يمكنه الخروج عليها إلا بقدر ما يسمح له المسرح نفسه، وهو مرتبط في داخل العمل المسرحي بمكونات لشخصياته، وبالفعل المسرح الذي تتحرك الشخصيات في إطاره وفي قدرتها على تحريك الحدث وقدرتها على تحريكها كل هذا إنما يتم عن طريق الحوار وليس للسرد أدنى دخل فيه[٢٤] هذا النص من النصوص الممتازة في بيان قيمة اللغة في عالم المسرح وكيف أنها تعد العصب الرئيسي للبناء الفني للمسرحية.

وتعتبر اللغة في المسرحية دليلاً على قيمة المؤلف الذي يستطيع أن يطوعها في ذهنه لباقي العناصر البنائية في عمله الفني من شخوص، وأحداث، وصراع وما إلى ذلك، ولقد سار عزيز أباظة على درب أستاذه شوقي في اتخاذ القالب الشعري الموزون

([24]) د. شمس الدين الحجاجي. النقد المسرحي في مصر ص٨٣، ٨٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٥م.

المقفى لمسرحياته ومنها (مسرحية غروب الأندلس) موضوع الدرس.

وسوف أقف في هذا الموضوع من الدراسة على معالم اللغة في مسرحية غروب الأندلس:

١- كثرة المفردات الغريبة: كان عزيز أباظة يلجأ كثيراً إلى المفردات الغريبة والقليلة الاستعمال، ويبدو هذا الأمر بوضوح في ثنايا مسرحيته.

ومن أمثلة ما نؤم:

١- "أعناق الخطوب"[٢٥] بمعنى استحثها ودفعها في سرعة.

٢- "تغين"[٢٦] بمعنى يتغشاها غين يحجب عنها صوابها.

٣- "المنسم المطحون"[٢٧] بمعنى الذي يهلك كل من وطئه.

٤- "التهويم"[٢٨] من معاني النوم.

٥- "الأمر الحازب"[٢٩] القوي الشديد الذي يصعب حله.

٦- "الزماغ"[٣٠] المضي في الأمر.

([25]) غروب الأندلس ص٢.

([26]) السابق ص٣.

([27]) السابق ص٣.

([28]) السابق ص٥.

([29]) السابق ص٥.

٧- "الوعر"[٣١] الحقد والضغينة.

٨- "لوشة ورنده والحامه"[٣٢] بلاد من أعمال غرناطة.

٩- "المطنوب"[٣٣] المنبع.

وتمتلئ المسرحية بتلك المفردات الغريبة التي آثرها أباظة ولعله في ذلك ينظر إلى بعض مسرحيات[٣٤] شوقي والتي وجدت فيها هذه الظاهرة المتكلفة.

ثانيا: التعبير بالحكمة:

من يقرأ مسرحية غروب الأندلس لأباظة يمل من كثرة استخدامه للحكمة في نص المسرحية وسوف نأتي بأمثلة لذلك من العمل الفني المدروس ومن ذلك قوله[٣٥].

"إن الضعيف يصول حين يراع" وقوله[٣٦]:

من لم يدعم بالأسنة ملكه والحزم بات مفزعاً لم يسلم

([30]) السابق ص٦.

([31]) السابق ص٧.

([32]) السابق ص٣٧.

([33]) السابق ص١٠٥

([34]) راجع شوقي في مصرع كليوباترا – قمبيز – مجنون ليلى.

([35]) غروب الأندلس ص٧.

([36]) المسرحية ص١١.

وقوله[٣٧]:

ورب جهود إن تراخت تخيب ويومك إن يغرب فليس بآيب

وقوله[٣٨]: لا تلمهم إنها الدنيا افتراس واعتداء.

وقوله[٣٩]: والدهر يومان إدبار اقبال.

وقوله[٤٠]: ما تفيد الصلاة إن زاغت الروح ولفت أطواءها الآثام.

وقوله[٤١]:

فإن تدبر الأقدار فالصبر جنة وإن تكبر الأحداث فالله أكبر.

وقوله[٤٢]:

إن تفسد الرأس دب الفساد في الأوصال.

تلك ظاهرة في البناء اللغوي لمسرحية غروب الأندلس لعزيز أباظة اكتفيت بما أوردت من نماذج وهي كثيرة ومتعددة في ثنايا المسرحية.

([37]) السابق ص٣٦.

([38]) السابق ص٤١.

([39]) السابق ص٥٦.

([40]) غروب الأندلس ص٦٧.

([41]) السابق ص٧٤

([42]) السابق ص٩٥.

٣- **الاقتباس:**

من الظواهر اللغوية في بناء المسرحية عند عزيز أباظة أنه كان يقتبس بعض المعاني والآيات القرآنية ويبثها في النص المسرحي، وتلك ظاهرة قديمة جديدة استخدمها الشعراء في الأدب القديم والحديث وهي جيدة إن استطاع الكاتب أن يوظفها التوظيف الجيد، فلا يقتبس بمناسبة وغير مناسبة. وسوف أورد بعض النماذج لاقتباسات عزيز أباظة من خلال المسرحية.

أولا: القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله الذي يظفر بالمعاني ولذلك وقف عنده العرب وغيرهم منذ القدم منبهرين بالإعجاز اللغوي لآياته المنسمة بالفصاحة والبلاغة والبيان. وشاعرنا عزيز أباظة في مسرحيته "غروب الأندلس" كان واحداً من هؤلاء الذين شرفوا أعمالهم الأدبية بالقرآن الكريم ومن نماذجه في ذلك.

قوله[٤٣]

الله إن أخذ لرى بفسوقها عصف الخلاف بها فكان قضاء

([43]) المسرحية ص٥٠.

فهو في البيت ينظر إلى قوله تعالى[٤٤]:

"وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"

وقوله[٤٥]: "ضل سعيهم وخابا" فهو من قوله تعالى[٤٦]: "الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا".

"وهوى النفس وهي أمارة بالسوء" فهو ينظر إلى قوله تعالى:

"إن النفس لأمارة بالسوء"[٤٧]

وقول الشاعر[٤٨]:

سنة الله في العباد. شباب فكتهال فكبرة فحمام

والبيت من قوله تعالى[٤٩]: "والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا"

وقد جاءت تلك الآية في نهاية المسرحية والتي تعبر عن ضعف الملوك في الأندلس والذين تسببوا في ضياعه وأتى الشاعر

([44]) سورة الإسراء الآية رقم ١٦.

([45]) المسرحية ص٥٣

([46]) سورة الكهف الآية رقم ١٠٤.

([47]) سورة يوسف الاية رقم ٥٣.

([48]) المسرحية ص٦٥.

([49]) سورة النحل الآية رقم ٧٠.

بالآية لتعبر عن حالة أبي عبد الله الملك الخائن الذي باع الأندلس، فأتى الشاعر بقوله تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" ولا ريب في أن الاقتباس من القرآن الكريم يعطي جمالاً لغوياً على لغة المسرحية والتي تزداد بلاغة وفصاحة بهذا لاقتباس القرآني ومن ألوان ذلك في لغة المسرحية الأحاديث الشريفة والقدسية وبعض أبيات الشعر القديم لكن كل ذلك قليل ولا يستحق أن نفرد له حديثاً خاصاً به ولا شك أن لغة عزيز أباظة لغة جزلة ذات أسلوب سلس إلا من بعض التأنق الزائد في التراكيب ووجود بعض الكلمات التي تحتاج إلى القواميس حتى أن الشاعر كان يأتي بمعنى الكلمات الصعبة بالهامش.

الحوار:

ما زال الحوار المسرحي يحتل الصدارة في معالجة العمل المسرحي من الناحية البنائية. وكذلك ما تزال الأراء منقسمة حول لغة الحوار في المسرحية المصرية بينما ينادي البعض بوجود استعمال العربية الفصحى، يرى البعض الآخر أن العامية هي اللغة التي تناسب مسرحياتنا وبين هؤلاء وأولئك يرتفع صوت الستاذ

توفيق الحكيم منادياً بما يسميه "اللغة الوسطى"[٥٠] وبين تلك الآراء المتعددة في مسالة الحوار اختلف نقاد الأدب المسرحي. وما زال الخلاف حتى يومنا هذا. ولا ريب في أن الكاتب المسرحي الجيد هو الذي يستطيع أن يجعل لكل شخصية في عمله المسرحي الحوار المناسب لها فلا يعقل أن يكون الأمير أو الأديب أو الشخص العادي متساوين في لغة الحوار، فلا بد من وجود فروق فردية لغوية في هذا العنصر البنائي "والظاهرة الأساسية الأخرى للعمل هي كما عرفنا أيضاً الحوار. فالمسرحية قطعة من الحياة، والشخصيات فيها عناصر بارزة تتحرك أمامنا وتتحدث ويتصل بعضها ببعض في صورة عملية لا عن طريق حكاية سردية.

والحوار الذي يدور بين الناس في الحياة العادية تكون له أهميته بمقدار ما يستمد من حيوات الأشخاص المتكلمين، فالشخصيات الحية المتدفقة الحياة يصدر عنها حديث يتمتع بقسط كبير من الحيوية، فحيوية الحوار مرتبطة إلى حد بعيد بحيوية الأشخاص[٥١] وجاء الحوار في مسرحية "غروب الأندلس" على أنماط مختلفة

([50]) د. شفيق مجلي: الحوار في المسرح المصري، مجلة المسرح ص٣٤، العدد التاسع، سبتمبر سنة ١٩٦٤م.

([51]) د. عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه ص٥٩.

فأحياناً يأتي جيداً موحياً وأحياناً تشوبه النبرة الخطابية والوعظية مما يفقده حيويته وجماله.

ومن أمثلة الحوار الجيد الذي يتميز بقصر العبارة وأداء المعنى المراد هذا الحوار الذي نسوقه نموذجاً للنوع الأول[٥٢]:

عائشة : من ذا أرى؟!

حامد : هذا أمير الجيش في غرناطة

موسى : هل جاء بنذير

عائشة : أهلاً أمير الجيش!!

العطار : مولاتي اسلمي وعدتك منسئة يد المقرور ابن الأمير محمد؟

عائشة : نزلت به منذ أمس حمى الراعد المقرور

العطار : إني وفدت له رسول القصر من غرناطة والجيش والجمهور ادعوه باسمهم ليحكمهم على سنن الكتاب وهديه المأثور.

كان هذا النموذج للحوار القائم على الحيوية والسؤال والجواب مما يجعل المتلقي متشوقاً لسماع الحوار، وتلك ميزة يمتاز بها الكاتب المسرحي الممتاز، أما النوع الثاني من الحوار وهو الذي

([52]) المسرحية ص٤٨.

يتسم بالنبرة الوعظية والخطابية والتدخل من المؤلف في إدارة الحوار بأسلوبه هو وهذا ما يعد عيباً كبيراً على كاتب المسرحية. ومن نماذج ذلك هذا الحوار.

الزغل: أيها الملك هو تعرض بالناس وأنت الملوم والمسئول

لو تداركتني بملقا فلم يحبسك حقد در وغل دخيل

لظهورنا على العدو فأمسى وهو عصف مضرس ماكول

ومنعنا غرناطة بعد ملقا فتولت عنا الخطوب النزول

موسى: أيها الملك قد قتداعت فدالت دولة المسلمين فهو فلول

يوم ساورتها بجيش عدو الله نرمي عند قوسه وتصول

إن من صال بالعدو عدو ومن اعتز بالدخيل ذليل

وإذا الملك واثب الشعب فالله كفيل بسحقه ووكيل[٥٣]

فالحوار السابق موشح بالنبرات الخطابية والوعظية، مما يفقده مميزاته التي تجعله ذا جودة إبداعية تشهد للكاتب المسرحي بالإتقان الفني، وتجعل المتلقي متشوقاً لقراءة العمل المسرحي مهما كان طويلاً.

زمان المسرحية:

([53]) المسرحية ص١١.

تتناول المسرحية الفترة الأخيرة من حكم بني الأحمر في الأندلس وهي تلك الفترة التي أفلت بسقوط الدولة، وإبادة الحكم الإسلامي فيها إلى الأبد، حتى تولى أبو عبد الله الحكم في الأندلس، والذي كان سبباً رئيسياً في ضياع جنة الله في الأرض بضعف شخصية وقلة خبرته حتى إنه بدأ يفاوض الأسبان على أن يخلي لهم قلعة الحمراء أي غرناطة بما فيه نظير شروط ومطالب يوافق صاحب قشتالة عليها ويلتزم الرفاء بها ثم عقدت الشروط وقرئت على أهل غرناطة فقبولها ونزل السلطان أبو عبد الله من آخر معقل للمسلمين بالأندلس وسلم مفاتيح غرناطة أجمل أثارهم وأروعها في ربيع الأول ٧٩٨هـ، ولما بكى أبو عبد الله لهول الكارثة وبكته أمه قائلة له:

أبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال ثم إلى المغرب ونزل بفارس حتى مات بها[٥٤].

ولقد عرض عزيز أباظة لتلك الفترة في جودة وإمتاع ولم يخالف أحداث التاريخ في الفترة التي يتناولها حتى وصلت به الأحداث إلى السقوط والضياع ونجد ألفاظاً تدل على عنصر الزمان

([54]) د. علي محمود حمودة. تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ص٢٩٩، ط الأولى، سنة ١٩٥٧م.

في المسرحية، مثل الشمس، والغروب[٥٥] وقد وظفها الشاعر في بناء المسرحية، وهكذا غربت شمس الإسلام في بلاد الأندلس وانطفأت أنوار العلم والحضارة والفن التي أنارت أوروبا حينما كانت تتخبط في ظلمات العصور الوسطى على مدى ثمانية قرون ٢هـ - ٩٩٧هـ (٧١١ - ١٤٩٢م). وكان عزيز أباظة قد جعل عنوان المسرحية رمزاً لغروب الأندلس في الواقع ولقد استغرق زمان الأحداث المسرحية ما يقرب من عامين ونصف ووقعت الأزمة وحلها في النهار حتى مغيب الشمس[٥٦].

مكان المسرحية:

يعد المكان في العمل المسرحي من الأهمية بمكان، والمؤلف المسرحي الجيد هو الذي يستطيع أن يوظف هذا العنصر في خدمة مسرحيته، وشاعرنا عزيز أباظة استطاع أن يحقق فنية هذا العنصر البنائي في جودة المسرحية، فأحداث المسرحية وقعت في غرناطة حين كان ملك المسلمين فيها قد آذن بالأفول أي في أواخر القرن الخامس عشر ووقعت أطراف منها في القاهرة حين كان

([55]) راجع المسرحية ص١٠٥.

([56]) راجع د. عبد المحسن عاطف سلام عن مسرحيات عزيز أباظة، ص٣١٠، ٣١٤.

استقلال المصريين يوشك أن يزول. ولكن القصة على رغم ذلك أو أقل من أجل ذلك تخدعنا عن أنفسنا فتكل ما يحيط بنا من الظروف، وتوشك أن تلقى في روعنا أنها إنما تصور لنا حياتنا التي نحياها والأحداث التي تقع بين أظهرنا، وما أكثر ما نسأل أنفسنا أيتحدث الشاعر عن خطوب تتابعت في مدينة من مدن الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر أم يتحدث عن خطوب تتابعت في منتصف القرن العشرين بمدينة القاهرة[٥٧].

ودارت أحداث كثيرة من المسرحية في مدن غرناطة ووادي آش، وقصر الحمراء وصور كثيرة من أحداثها في مدينة القاهرة، وتحدث عن مصر والمصريين كثيراً في قصور المسرحية حتى أن الدكتور طه حسين تصور أن الشاعر يتناول مصر والمصريين أكثر مما يتناول غرناطة والأندلسيين فقال: "ولو مضى الشاعر في نسيان غرناطة وأهلها أكثر قليلاً مما مضى لسمى أشخاصا مصريين، ولصرح عن أحداث مصرية، وخطوب عربية معاصرة، وعدد مكايد من الإنجليز وبني إسرائيل، ثم لم يجد بعد ذلك مشقة أي مشقة في أن يمضي القصة كما أراد ضميره أن تمضي ولكنه شق على نفسه وعنف خياله بخياله وخواطره، ورد قلمه إلى

([57]) د. طه حسين. مقدمة المسرحية، ص ز، ح.

غرناطة بين حين وحين رداً فيه شيئ من قسوة لأنه كان يأبى أن يكتب إلا في مصر والمصريين[٥٨].

ولكن أباظة في نهاية المسرحية يأتي بمدينة غرناطة التي تمثل العصب الرئيسي لعنصر المكان في المسرحية حيث كان الملك أبو عبد الله يسلمها إلى الإفرنج وهو يبكي مما يشي بأن غرناطة كانت تحتل البؤرة الشعرية لجريان الأحداث في مسرحية غروب الأندلس لعزيز أباظة ويستثنى من ذلك الفصل الرابع الذي دارت جل أحداثه في مصر وربما أراد أباظة من ذلك أن يحذرنا من أحوال الأندلس المتردية حتى تكون عبرة لنا في عصرنا الحاضر.

العقدة:

تعتبر العقدة في العمل المسرحي من العناصر المهمة للبناء الفني للمسرحية. وهذا الأمر شغل معظم نقاد المسرح فراحوا يتحدون عن مفهومها النقدي في إفاضة وتكاد لا تخلو كتب النقد المسرحي من الحديث عنها، وبيان أثرها الفني في العمل المسرحي.

نحن نلقي عادة قليلا من الصعوبة في استخلاص العقد الأساسية للمسرحية أو موضوعها الرئيسي بما تشتمل عليه من

---

(58) السابق ص ط.

توضيح وأزمة أولى وتعقيد وحل غير أن كثيراً من التمثيليات الحسنة التي تشتمل على عقدة ثانوية، أو كثير من العقد الثانوية أو تشتمل أحياناً على عقدتين رئيسيتين متساويتين في الأهمية تقريباً مما يزيد من تعقيد الفعل ويضاعف الاهتمام ويفرج عن الأعصاب من طول الاستغراق في مشاهدة عقدة واحدة[٥٩]. وقارئ المسرحية لا يجد صعوبة في إدراك بعض المشاكل التي تتخلل مسرحية "غروب الأندلس" وكل هذه المشاكل تبلغ ذروتها حتى تصل بها الأحداث إلى حلول لتلك الأزمات التي تناثرت في المسرحية منذ الفصل الأول تحدث أزمة كبيرة بسبب الأمير يحيى الحكم ويتم الزج بالوطنيين في السجون ويأتي الحل في هذه الأزمة بإطلاق سراحهم من جانب السلطان.

ونرى في الفصل الثاني تأزماً للأحداث المسرحية بسبب ثورة الشعب والأعمال المجاورة لمدينة غرناطة وهنا تقرر عائشة أن تهاجم غرناطة بعدما علمت بحدوث تعاون بين الإفرنج والثريا. ويكون الحل بأن يتنازل الملك عن عرش الحكم.

([59]) أريك بنتلي: المسرح الحديث. دراسة في الدراما ومؤلفيها ص٨٦، ترجمة محمد عزيز، الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة.

وفي الفصل الثالث يحضر الوفد العربي لفداء ملكهم لكنهم يجدون الملك في حال مختلفة فتحدث خصومات بين الملك الأثير، والوفد العربي، ويذيع الملك عن عزمه في محاربة جيش الفرنج ثم الفصل الرابع الذي يحدث فيه أن تستحوذ عائشة على حاكم مصر وتجعله في جانبها ويقرر إرسال بعثة لتهديد الحبر ويكون الحل في وصول الأمير محمد بن السراج ليذيع خبراً هاماً وهو رجوع ابنها وقهره للشعب وطرده لمحمد سعد الغل.

أما في الفصل الأخير من المسرحية تصل الأزمات إلى ذروتها ويشتد الصراع بين الوطنيين والمستسلمين على حيث يقف الفرنج على الأبواب ينتظرون ما سوف يحدث وتتعقد الأمور أكثر حين يطلب الحبر تسليم البلاد قبل الغروب ويحاول الملك أبو عبد الله إقناع أمه بقبول الصلح حقناً للدماء، ويقف معه قاضي القضاة والوزير أبو القاسم، ويرفض الوطنيون الاستسلام وتقترب الساعة من الصفر وهم في جدال وعلى مسمع من آيات تتلى "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" يأتي الحل سيفاً قاطعاً ويأمر أبو عبد الله بإنزال العلم[٦٠]

([60]) د. عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق: مدخل إلى تحليل النص الأدبي ص٢٠٢.

وينزل العلم ويسدل الستار عليك يا أندلس على حين راح أبو عبد الله يبكي مثل النساء وراحت أمه تعنفه لكن بعد فوات الأوان.

نقد المسرحية:

على الرغم من أن مسرحية "غروب الأندلس" لمؤلفها عزيز أباظة تمتاز بمجموعة من الميزات التي تجعلها مسرحية مكتملة الأدوات الفنية من حيث الشكل والمضمون، فإن هناك بعض المزالق التي يأخذها القارئ على تلك المسرحية ولعل من أهمها:

١- الصنعة والتكليف من الشاعر فلم يكن يترك الفرصة تفوته دون أن يتكأ على محسن بديعي أو صورة فنية وما أكثر هذا في المسرحية[٦١] فالقارئ ما تكاد تمر صفحة دون أن يصطدم بشيء من هذا، أيضاً استخدام الكثير من الكلمات الغربية والتي تحتاج إلى قاموس لمعرفة أصولها ومعانيها. وكذلك انتشار الحكمة بشكل لافت للنظر في ثنايا المسرحية كظاهرة من ظواهر التشكيل اللغوي.

٢- يفتقد الحوار في المسرحية كثيراً إلى الحيوية والحركة وتكثر فيها النبرة الخطابية والوعظية كما أن الشاعر لم يكن

([61]) راجع: غروب الأندلس ص ٧، ١٢، ١٧، ٢١، ٦٠، ١١.

يفرق بين اللغة على لسان الشخوص، فالكل سواء عنده، وهذا مما يحسب على اللغة الحوارية في النص المسرحي ومن أمثلة ذلك هذا الحوار الذي يدور بين عائشة والسلطان.

تقول عائشة:

حببت يا ملك الملوك ولم تزل أعلا همو وأعزهم سلطاناً
وبقيت لألم الشقيقة موئلاً في أدها ومناصراً معواناً
قد آن أن أمضي وطني وإن كانت دياركمو لنا أوطاناً
الدين قربي والعروبة لحمة ولعل أقوى الأحداث أسانا
تلك الوشائج وحدت ما بيينا وإن اختلفنا راية ومكاناً[٦٢]

وهناك الكثير من الأمثلة والتي تطغى عليها النبرة الوعظية وهذا ما يؤخذ على عزيز أباظة كم أن بعض الحوارات محكومة بتيار نفسي واحد وعلى وزن واحد وكأنها قصيدة طويلة النفس صاغها الشاعر لشخصين أو أكثر.

كذلك نرى أن الشخوص في المسرحية لم تستطع أن تكون شخصيات إنسانية بارزة بمعنى أنها لا تصور لنا ظواهر إنسانية باقية وإنما هي أقرب إلى الشخصيات العادية في الحياة

([62]) المسرحية ص٨٨.

وإن كانت تقوم بالأدوار التي تتم في الحياة داخل القصور فلدينا شخصيات السلطان والأمراء والقواد والجواري والولاة وكل من له صلة بطبقة الحكام وخطورة الشخصية بالنسبة للعمل المسرحي لا تأتي من خطورة مركزها الاجتماعي أو مركزها السياسي ولكن من أهميتها الإنسانية – وكذلك لم تكن شخصيات غروب الأندلس هي تلك الشخصيات الإنسانية ذات القيمة وإن صورت لنا النوازع الإنسانية[٦٣] يتوغل في أعماق الشخصيات الداخلية ويحللها تحليلاً نفسياً في حدود الإطار الفني الذي يخدم عمله المسرحي في الصميم. ولم يظهر من الشخصيات المسرحية بمظهر غير عائشة التي استطاع عزيز أباظة أن يرسمها جيداً ويجعلها محوراً للأحداث المسرحية في مصر ووادي آش وغرناطة[٦٤]. أما بقية الشخوص فلم يفلح عزيز أباظة في رسمها مسرحياً كما ينبغي لها أن تكون، وقد نال منها الدكتور طه حسين بطريقة غير مباشرة حينما قال إنها قصيدة لم يسمع بشعرها منذ وقت طويل على الرغم من أنه أراد أن يعفي نفسه من تقييم المسرحية.

([63]) د. عز الدين إسماعيل. الأدب وفنونه ص ١٦٠، ١٦١.

([64]) راجع د. عز الين إسماعيل: التفسير النفسي للأدب.

ومما يؤخذ على المسرحية أيضاً أن صورة الأندلس هنا لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما جئ بها مستقلة في دلالة أخرى هي الإسقاط وموازاة هموم التاريخ الأندلسي في إحدى فتراته بتاريخ مصر المعاصر للمؤلف، وكان ينبغي عليه أن ينأى عن المباشرة في الإسقاط وأن يصور الفترة الأندلسية بجماع أمرها تبدو واضحة الدلالة فنياً، على نفسها ثم بطريق غير مباشرة على واقع القارئ الذي يعيشه.

وما أجمل أن أختم حديثي عن مسرحية غروب الأندلس بكلمة مؤلفها عزيز أباظة وهو يهديها إلى الأمة المصرية الكريمة قائلاً: لقد كان من مواتاة القدر أن أفرغ من كتابتها، إلا قدراً ضئيلاً منها ولما يأذن الله لفجرك الجديد أن تشرق أضواءه ولا لعبئك المجيد أن تنهل آلاؤه، ولقد كان أغلب ظني أنها لن يهيأ لها أن تنشد على الناس ممثلة أمامهم أو متداولة بين أيديهم ولكني قدرت وقدر الله وكان أمر الله قدراً مقدورا وفي هذه المسرحية أيتها الأمة الناهضة لمحات عن الدول كيف تتداعى أواسيها ولعل العظة بالاعتبار ألصق بالمشاعر من العظة والنصيحة فإن شارفت هذه العظة منك سماوه تشوقت

إليها فهي إذن نشيدة طالما تعلق أملي بأهدابها، ورغبة وقفت العمر أعالج العسير من أبوابها [٦٥].

هذا والله الموفق

د/ ليلى عبده الشبيلى

كان ذلك في شهر ذى القعدة الموافق ١٤٣٢ هـ أكتوبر الموافق ٢٠١١

([65]) راجع: عزيز أباظة: كلمة الإهداء في صدر المسرحية.

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أحمد بدوي من النقد والأدب المجموعة الأولى، ط٢، سنة ١٩٦٠م.

٣- أحمد شمس الدين الحجاجي، المسرحية الشعرية في الأدب العربي الحديث، كتاب الهلال ١٩٩٥م.

٤- أريك بنتلي: المسرح الحديث. دراسة في الدراما ومؤلفيها، ترجمة محمد عزيز، الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة.

٥- إسماعيل الصيفي الدراما بين شوقي وأباظة مكتبة الفلاح الكويت سنة ١٩٧٧م.

٦- شفيق مجلي: الحوار في المسرح المصري، مجلة المسرح ، العدد التاسع، سبتمبر سنة ١٩٦٤م.

٧- شمس الدين الحجاجي. النقد المسرحي في مصر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٥م.

٨- شوقي في مصرع كليوباترا – قمبيز – مجنون ليلى.

٩- طه حسين. مقدمة المسرحية.

١٠-عبد القادر أبو شريفة، حسين لاقي قزف. مدخل إلى تحليل النص الأدبي.

١١-عبد المحسن عاطف سلام عن مسرحيات عزيز أباظة، منشأة المعارف الأسكندرية سنة ١٩٦١م.

١٢-عز الدين إسماعيل – الشعر المسرحي في الأدب المصري الحديث.

١٣- عزالدين إسماعيل الأدب وفنونه – دار الفكر العربي. القاهرة ط٢.

١٤-عزيز أباظة. مسرحية غروب الأندلس، ١٩٥٢م.

١٥-علي محمود حمودة. تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي، ط الأولى، سنة ١٩٥٧م.

١٦-كمال إسماعيل – الشعر المسرحي في الأدب المصري الحديث.